

القرصنة وتداعياتها على ركب الحج البحري المغاربي خلال القرن الـ 18 الميلادي

Piracy and its impact on maritime pilgrimage in the Maghreb during the 18th century

أ.د/ مصطفى عبيد	ط.د/ إبراهيم خالدي*
جامعة محمد بوضياف – المسيلة – (الجزائر)	جامعة زيان عاشور – الجلفة – (الجزائر) مخبر الدراسات التاريخية والإنسانية
mostafaabid28@gmail.com	ibrahim.khaldi@univ-djelfa.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/04 تاريخ القبول: 2024/09/25

● الملخص:

ما يسترعي اهتمام الدارس لظاهرة القرصنة على الركب الحجى البحري في بلاد المغرب خلال الفترة الحديثة هو ارتباط ظهوره وازدياد نشاطه بحالة التوتر والحروب التي سادت علاقات الإسلام بالمسيحية في الحوض الغربي للمتوسط. لذا نحاول في هذه المقالة واعتمادا على المنهج الوصفي التحليلي تتبع أخبار الركب الحجى البحري المغاربي، والذي رغم عمليات السطو البحري والقرصنة والحروب المتوالية لم تكن هذه العوامل من عزيمة الحجاج المغاربة فرادى وجماعات في اقتحام المجال المتوسطي، والتوجه صوب أراضي الحرمين الشريفين لأداء مناسك الحج.

كلمات مفتاحية: بلاد المغرب، الحوض الغربي للمتوسط، ركب الحج البحري المغاربي، القرصنة.

Abstract:

In this summary, the focus is on the phenomenon of piracy during maritime pilgrimages in the Maghreb countries in the modern period. What captures the student's attention is the correlation between the emergence and escalation of piracy and the heightened tension and conflicts between Islam and Christianity in the western Mediterranean basin. Despite the challenges posed by sea robberies, piracy, and ongoing wars, this article aims to track the developments in Maghreb maritime pilgrimages. Importantly, despite these adversities, Maghrebian pilgrims, both individually and in groups, demonstrated unwavering determination to navigate the Mediterranean, reaching the lands of the Two Holy Mosques to fulfill the Hajj rituals.

Keywords:

Maghreb countries, the western Mediterranean basin, maritime pilgrimages maghrebian, piracy

● مقدمة:

دأب المغاربة على أداء مناسك الحج منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، وكانوا يبذلون جهوداً مضنية في سبيل أداء مناسكه، ومع هذا الاهتمام الشديد، فإن هناك أسباب حالت أحياناً دون أداء مناسك الحج للأفراد أو لأبناء مدينة أو دولة معينة، أو حالت كلياً دون أداء مناسك الحج لذلك العام، لهذا أولى المؤرخون والرحالة أحداث الحج أهمية كبيرة فسطروا في مؤلفاتهم الكثيرة مما يتعلق بمسيرة الحج سواء في المجال الفقهي أو سرد وقائع الحج، وما يتعلق به في جميع النواحي الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وكان مما تناولوه الموانع والأسباب التي كانت تحول دون أداء مناسك الحج إلى بيت الله الحرام بصفة طبيعية. وعلى أساس هذه الأدوار نتساءل:

- كيف كان يتم تجهيز وتنقل الركب البحري، وما هو واقع ومآلات الرحلات الحجاجية عبر الحوض الغربي للمتوسط في ظل تنامي ظاهرة القرصنة. وكيف كان موقف حكومات بلدان المغرب من هذا النشاط العدائي ضد سفن ومراكب الحجيج؟

1. تحرك السواكن لأقدس الأماكن (العاطفة الدينية):

عرف المغاربة عبر تاريخهم الإسلامي بحرصهم الكبير على أداء فريضة الحج باعتبارها ركناً من أركان الإسلام أولاً لمن استطاع إليها سبيلاً، ثم لما يتوافر لهم في هذه المناسبة من فرص اللقاء والتواصل مع إخوانهم المسلمين من جميع أنحاء المعمور، في إطار الأخوة الإسلامية، ونداء العقيدة. فموسم الحج محطة يتطلع لها المسلمون، في مشارق الأرض ومغاربها، وهو لا يقتصر على تأدية الشعائر الدينية فحسب، بل هو موسم سياسي وعلمي وثقافي واقتصادي تواصل به بامتياز، سواء بالديار المقدسة أو عبر المحطات التي يقطعها ركب الحج. لأن مسيرة الحج ذهاباً وإياباً تتخللها لقاءات مع طلبة العلم وشيوخه في عدة بيئات علمية، فيستفيد الحاج ويفيد أخذاً وعطاءً. فالرحلة¹ بصفة عامة هي السفر الذي يتوخى من ورائه الاطلاع على آفاق جديدة وكشف النقاب عن المجهول من الأرض والناس². كما أنها سبيل لاكتساب العلم والمعرفة في المراكز العلمية المختلفة، وأداة تواصل حضاري بمفهومه الواسع. فالإنسان بطبعه لا يبقى حبيس محله سواء كان بيتاً أو منطقة أو حتى بلداً، وإلا فلا يمكن أن نتحدث عن وجود الحضارة بمختلف أوجهها، والتي تصنعها في غالب الأحيان حركات التأثير والتأثير³.

ويؤكد ابن خلدون في "المقدمة" أن رحلة المغاربة كانت غالباً إلى الحجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصر على الأخذ على علماء المدينة⁴. وتعتبر الرحلة الحجازية من أهم الرحلات التي يستفيد منها المسافر كل هذه الفوائد الحج والعلوم ومعرفة الطرق والمشاهد المتنوعة⁵. وقد اشتهر هذا النوع لدى المغاربة منذ وصول الإسلام إلى

¹ - عرف الإمام أبو حامد الغزالي الرحلة والسفر بأثماً - نوع حركة ومخالطة أو نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة، وأوضح أن القواعد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب، وأن الإنسان لا يسافر إلا في غرض أو لعرض هو المحرك، والرحلة كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده وما عاشه مازجا بذلك انطباعاته الذاتية حول المرحل إليهم. أي حامد أحمد بن محمد الغزالي - إحياء علوم

الدين - ج 02 - دار الكتب العلمية - بيروت - 1986 - ص 273

² - حسين محمد فهمي - أدب الرحلات - عالم المعرفة - الكويت - يونيو 1989 - ص 15

³ - مصطفى الطوبى - نفس المرجع - ص 28

⁴ - عبد الرحمن ابن خلدون - المقدمة - تحقيق درويش الجويدي - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - ط 2 - 1996/1416 - ص 420

⁵ - مصطفى الطوبى - نفس المرجع - ص 28

الشمال الإفريقي، إذ تنطلق الرحلات من المغرب إلى المشرق، قبل مدة معلومة من حلول موسم الحج، لأداء الفريضة وتحصيل العلم، وقد كان لها دائما دورها الهام في الاتصال بين أهل المغرب وإخوانهم في البلاد الإسلامية بالشرق، الأمر الذي رسخت معه روابط اللغة والدين حتى حين تبددت الوحدة السياسية¹.

2. ركب الحج المغاربي - البنية والتنظيم:

1.2 ملاحظات حول المصطلح:

اختلفت المصطلحات التي أطلقها المغاربة على "الرحلة الجماعية" إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. فهناك من استعمل مصطلح "ركب الحج" أو "ركب الحاج" أو "ركب الحجيج"، ويذكر المؤرخ المغربي محمد المنوني أنه وجد من المؤرخين من استعمل مصطلح "الركب النبوي" وفي مقدمتهم المؤرخان محمد بن أحمد أكنسوس في "الجيش العرمم" وأبو القاسم الزباني في "البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف"، وهناك من استعمل مصطلحا ربطه بالجهة التي يمثلها².

2.2 البنية والعدد:

الركب عبارة عن مدينة متنقلة بنظام ويشرف على سيرها وراحتها وأمنها أمير الركب وبجانبه الإمام والقاضي، ويتحرك الجميع بأمتعتهم على الإبل، وأتعب السفر كثيرة ولذا تسير القافلة ببطء وتعاني من البرد والجوع والعطش وفقدان الزاد والماء وغياء الإبل³. فالقافلة الأهم هي قافلة الحج، القافلة التي تقود المسلمين إلى مكة. هي الأهم بالتأكيد إذ بالألوف يتحرك المغاربة، يرافقهم عدد هائل من الجمال من المغرب، حيث الحجاج يحتشدون في تازة، القافلة تجتاز الجزائر وتونس إما بالجرید أو بمدينة تونس مضخمة بحجاج الولايتين، تصل طرابلس بعد نيف وشهرين من السفر هنا يجدد الناس قواهم، ثم يستأنفون المسيرة حتى الإسكندرية التي يبلغونها بعد 40 أو 50 يوما من السفر⁴. وقد مثل ركب الحج في القرن الـ12هـ/18م مزحفا وتجمعا بشريا ضخما تعداده بالآلاف، وذلك استنادا إلى أقوال حاج مغربي وهو محمد بن عبد السلام الناصري عند دخوله مصر عائدا من حجته لعام 1196هـ/1782م، وهي أن زهاء 2000 مغربي بقوا بمصر لم يحجوا لأنهم وصلوا متأخرين⁵، كما أن قافلة الحج المصرية والتي كانت تضم إليها حجيج أهل المغارب حظيت باهتمام العديد من المؤرخين سواء المسلمين أو الرحالة الأجانب، والذي قدر أحدهم أعداد الحجاج الذين جاءوا ضمن قافلة الحج المصرية في أواخر القرن السادس عشر الميلادي العاشر الهجري بحوالي خمسين ألف حاج، ويقدر الرحالة التركي أوليا جلبي عدد الحجاج في منتصف القرن السابع عشر الميلادي الحادي عشر الهجري بحوالي مائتي ألف منها أربعين ألف حاج مصري⁶، أما في سنة 1196هـ/1782م فقد قدر عدد حجاج مصر ماب ين ثلاثين ألفا إلى أربعين ألف حاج⁷، ولا يستغرب من هذا الرقم "فأندرى ريموند" أشار إلى أن أعداد ركب الحج خلال القرن

¹ - حسين محمد فهميم - نفس المرجع - ص 15

² - محمد المنوني - ركب الحاج المغربي - مطبعة المخزن - تطوان - المغرب - 1953م - ص ص 07-08

³ - مولاي بلحميسي - الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1981 - ص 25

⁴ - لوسيت فالنسي - المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830 - ترجمة الياس مرقص - دار الحقيقة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - 1980 - ص 72

⁵ - محمد بن عبد السلام الناصري - الرحلة الكبرى - تقديم وتحقيق المهدي الغالي - أطروحة دكتوراة - كلية الآداب - الرباط - 2011 - ص 493

⁶ - ياسر احمد عبد الرزاق - قوافل الحج وطرقها وخدماتها خلال عصر الدولة السعودية الأولى - مجلة الدراسات التاريخية والحضارية - العدد 02 أبريل 2017م - ص ص 370-396

⁷ - نفسه - ص 371

ال18م كانت تتراوح ما بين 20000 و60000 حاجا في الركب الشامي، وبين 30000 و40000 حاجا في الركب المصري¹، كما تم إحصاء عدد الحجاج الذين رافقوا الحمل الشريف المصري سنة 1906، والذي بلغ 18171 حاجا منهم 1584 حاج سافر برفقة الحمل، و16587 حاج سافروا بغير مرافقة الحمل²، ولم يكن الركب يضم فقط عوام الناس بل ضم أيضا فئة من الأعيان، وبالأخص أفرادا من العائلة الحاكمة في ركاب الحج الرسمية، حيث كانت الملوك تعني بذلك تختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرها³ مثل: الركب الفاسي المغربي الذي كان يذهب ضمنه الأمراء. كما هو الحال مع ركب 1101هـ/1690م الذي ضم الأمير المعتصم بن السلطان المولى إسماعيل⁴، وركب 1143هـ/1731م الذي ضم زوجة المولى إسماعيل الأميرة خنائة وحفيدها محمد الثالث⁵، كما سافر سيدي محمد بن عبد الله عام 1182هـ/1768م. وولديه مولاي علي ومولاي عبد السلام للحج مع الركب⁶، كما أشار الناصري في رجلته، وهو عائد من الحج مع الركب السجلماسي بموقع -سيدي خالد- في ركب 1196هـ/1781م أن الركب الرسمي المغربي الذهاب للحج ضم اليزيد بن السلطان⁷، كما ذكر ابن عثمان المكناسي في الإحراز انه التقى في حجته مع اليزيد بن أمير المؤمنين⁸، ورحل إلى الحج مع ركب الناصري سنة 1211هـ/1796م. كل من ابن السلطان مولاي سليمان وأخيه.

3.2 التجهيز والتنظيم والتسيير:

ينظم ركب الحج المغاربي من عدة جوانب، فهناك تنظيم تجهيزي يشمل لوازم السفر ومتطلباته، وهناك تنظيم بشري أشبه ما يكون بإدارة متنقلة لتسيير الركب منذ خروجه إلى عودته.

-التنظيم التجهيزي: ويكون تجهيز الركب على مرحلتين، المرحلة الأولى وهي التي تسبق الركب وخروجه، والمرحلة الثانية والتي تكون متزامنة مع السير بحسب ما تقتضيه المرحلة التي مر بها الركب⁹

-التنظيم البشري: أما التنظيم البشري فيتجسد من خلال عدة شخصيات تسهر على السير الحسن للركب في كل ظروفه وأحواله، وأهم شخصية هو أمير الركب¹⁰. ففيما يتعلق بمسألة تعيين أمير الركب أخبرتنا الرحلة الحجبة المغربية أن قائد ركب الحاج المغربي الرسمي كان يعين من قبل السلطة المركزية وفق شروط، ويحمل لقب أمير عند اختياره، ويعد من خدام السلطان، واستأثرت بإمارة هذا الركب وتوارثتها

¹ - Raymond André -les provinces arabes du XVIe-XXVIe et architecture des pays arabes al époque ottomane-in histoire de l'empire ottoman- fayard-1998-pp370-371

² -يوسف جغلار صالح كولن- الحمل الشريف ورحلته إلى الحرمين الشريفين- ترجمة د.حازم سعيد منتصر وأحمد كمال-دار النيل-ط01- القاهرة-مصر-2015-ص164

³ -أبو العباس أحمد بن خالد الناصري- الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- الدولة العلوية- الجزء الثامن-تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري-دار الكتاب- الدار البيضاء- المغرب- 1997-ص120

⁴ - محمد المنوبي- المرجع السابق-ص41

⁵ - عبد الهادي التازي- مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة- الجزء الأول-مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي- الرياض-2005م-ص291

⁶ - محمد المنوبي- المرجع السابق-ص41

⁷ - محمد بن عبد السلام الناصري- نفس المصدر-493

⁸ -محمد بن عبد الوهاب المكناسي- إحراز المحلى والرقب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب-حققها وقدم لها محمد بوكبوت- الطبعة الأولى-دار السويدي للنشر والتوزيع-أبو ظبي- الإمارات العربية المتحدة-2003م-ص262

⁹ -سليمان دهان-تنظيم ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني بين تلبية المقدس والتواصل الحضاري-مجلة أفكار وآفاق- العدد 09- الجزائر-2017-ص59

¹⁰ -سليمان دهان- المرجع السابق-ص67

في هذه الفترة عائلات محددة. كما هو الحال مع "عائلة عديل" مثل ما أخبرنا بذلك أحمد بن ناصر في حوالي 1790م. إذ كان أمير الركب الفاسي هو "الحاج عزوز عديل"¹، وأخبرنا أبو مدين الدرعي في عام 1740 أن شيخ الركب الفاسي القادم من الحج هو ولد عديل، وحتى في ركب الحج غير الرسمي وهو الركب الفلاي فقد كان لأميره علاقة بنسب الأسرة الحاكمة كما حصل زمن حجة أحمد بن ناصر الثالثة أنه "الشريف مولانا عبد الهادي بن إدريس"، وأن أميره في حجة الحضيكي هو "مولاي الشريف"²، وأميره سنة 1781 هو "مولاي علي بن محمد الحسيني العلوي البوعامي"³، وكان من شروط تولي إمارة الركب توفر الأمير على عدد من المواصفات منها "الخلق واللين الجانب مع الحجاج والرفق بالضعيف منهم، ومواساة من يحتاج إلى المواساة"⁴.

4.2 أنواع الركب الحجّي المغاربي:

تعددت أركب الحجّاج المغاربة المتوجهين إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، وكان أول ركب سمي بالركب الصالح نسبة إلى مؤسسه والداعي إليه الشيخ أبو محمد الصالح المغربي، وكان هذا الركب يسلك طريق آسفي الحجاز، ومن أركب الحج التي كانت في تلك الفترة ما يلي:

-الركب الفاسي: كان يخرج من مدينة فاس، ويرجع تأسيسه إلى سنة 703هـ/1301م، وأصبح منذ القرن الثامن الهجري الركب الرسمي الذي يسير فيه حجاج بلاد المغرب. حتى أن رئيس هذا الركب الإداري أو شيخه هو المسؤول الأول والأساسي عنه وعن بقية الركبان الأخرى⁵.

-الركب السجلماسي: كان هذا الركب⁶ يخرج من سجلماسة، ويذهب فيه أهل تافيلالت ومن لحق بهم، وهو ركب قديم، كان يسير تحت إمرته رئيس يختاره أهل الركب من أفضل القوم، وتذهب فيه خلائق كثيرة وكان لا يخلو من كبار الأعلام.

-الركب المراكشي: يخرج هذا الركب من مراكش، ويذهب فيه أهل المدينة ونواحيها، ويعتبر الركب المراكشي هو الركب الرسمي للدولة، والمرجح أنه تأسس مع دولة السعديين وانتهى بانتها دولتهم⁷.

-الركب الشنقيطي: هو ركب سكان موريتانيا الحالية وما حولها من أقاليم⁸. تأسس بعد عمارة هذه الجهة وكان يسافر سنويا ويمشي فيه كل من أراد الحج من سائر جهات شنقيط⁹. وأقدم رحلة حجّية مدونة خرجت من بلاد شنقيط هي "رحلة الحاج البشير البرتلي سنة

¹-أحمد بن ناصر الدرعي- الرحلة الكبرى-ج1-01- فاس- المغرب- ص147

²-محمد بن أحمد الحضيكي السوسي- الرحلة الحجازية- ضبط وتعليق عبد العالي المدبر- مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث- الرباط-2011- ص82

³- نفسه- ص83

⁴- الشرقي بن محمد الإسحافي- المصدر السابق- ص29

⁵- محمد علي فهمي بيومي- المغاربة في المدينة المنورة إبان القرن الثاني عشر الهجري /الثامن عشر الميلادي-ط01- دار القاهرة- القاهرة-مصر-2006م- ص ص26-27

⁶- بعد الركب السجلماسي من أشهر الركبان بعد الركب الفاسي

⁷- محمد المنوني- المرجع السابق- ص ص36-37

⁸- محمد علي فهمي بيومي- المرجع السابق- ص 30

⁹- المنوني- المرجع السابق- ص39

1789م، وغالبا ما كان هذا الركب يسلك الطريق من قرية المبروك إلى توات، ثم الدخول إلى الصحراء الجزائرية تنزروفت ثم عين صالح فزان ومصر ثم الحجاز¹.

-الركب الجزائري تميز الركب الجزائري خلال العهد العثماني باستقلاليته وخصوصيته حيث تكرر استخدام لفظ "الركب الجزائري" أو "ركب الجزائر" في متون الرحلات الحجازية الجزائرية في الكثير من المواضع²، وكان يخرج من إيالة الجزائر ركب واحد كل عام³، يتشكل عن طريق تجمع العديد من قوافل الحج الفرعية القادمة من جميع أنحاء الإيالة: من معسكر والمدينة وقسنطينة وعنابة وغيرها. لتتجمع في مكان واحد وهو بسكرة التي كانت نقطة التقاء الركب الجزائري⁴. هذا دون إغفال الحديث عن الركب الجزائري المسافر عبر البحر، والذي شاع في تلك الفترة واعتبر بمثابة الركب الرسمي لحكام الجزائر من الأتراك⁵.

5.2 طرق ومسالك ركب الحج المغاري:

بالنسبة إلى المتوجه إلى الشرق خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أمامه إمكانيات أساسيتان: الطريق البري التقليدي والطريق البحري عبر المتوسط⁶

-الأولى: السفر عن طريق البر، وما سبق ذكره من أنواع الركب يدخل في هذا الإطار

-الثانية: الرحلة عن طريق البحر، ولذلك استعملوا مصطلح "الركب البحري" عندما يتعلق الأمر بالسفر بحرا، ففي عهد السلطان المغربي مولاي عبد الرحمن بن هشام عرف الركب البحري ازدهارا وانتعاشا لم يعرفهما من قبل، كما يشير إلى ذلك الأستاذ محمد المنوني في دراسته عن "ركب الحج المغربي" فقد ذكر أن الركب البحري ظل يتقوى ويزدهر إلى أن صار مع السنين هو "الركب الرسمي للحجاج المغاربة"⁷

3. الحوض الغربي للمتوسط بين القرصنة والجهاد البحري:

تعتبر القرصنة أو اقتناص السفن والسطو عليها من أبرز العوامل التي أثرت على الحركة التجارية في البحر الأبيض المتوسط منذ عصور قديمة، وانعكس ذلك على جوانب أخرى كالجانب السياسي والاقتصادي والديني وأدى إلى قطيعة تاريخية بين ضفتي المتوسط.

1.3 مقومات الوحدة الحضارية لحوض المتوسط:

تختلف المجتمعات الحضارية في الزمان والمكان ولكل واحدة منها مظاهرها الحضارية التي تميزها عن غيرها، فالحيز المكاني هو الذي يتحكم في نوع النشاط الذي يمارسه الناس، أما الحيز الزماني فهو يلعب دورا بارزا في درجات هذا النشاط. فالمجتمعات الإنسانية الأولى نلاحظ فيها تأثير المكان واضحا على نشاط الإنسان حتى ليتمكن معه القول بجزرية الطبيعة الجغرافية، ولكن صراع الإنسان المستمر والدءوب

¹ - عمرو عبد العزيز منير محمد بن أحمد سالم-عبد الرحمان. بن محمد باعثمان- الرحلة المباركة للحاج محمد البشير بن أبي بكر البرتلي الولائي إلى الحرمين الشريفين 1204 - 1206هـ/1789-1791- دار بريل للنشر-لندن- ص ص 02-07-15

² - أحمد بوسعيد-ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني (1518-1830م)- أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة- قسم العلوم الإنسانية-جامعة أدرار- الجزائر-2017/2018م- ص 35

³ -فوزية لزغم- البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي 925-1246هـ/1520-1830م-أطروحة دكتوراة-جامعة وهران- الجزائر-2013/2014- ص 438

⁴ - نفسه- ص 439

⁵ -أحمد بوسعيد- المرجع السابق- ص 35

⁶ -مصطفى الغاشي- الرحلة المغربية والشرق العثماني-محاولة في بناء الصورة-ط01-مؤسسة الانتشار العربي-بيروت-لبنان-2015م- ص 349

⁷ - محمد المنوني- المرجع السابق- ص ص 40-41

ضد هذه الجبرية العنيدة جعله يتغلب عليها ويتكيف معها ويسخرها لصالحه¹. فالبهار ليست سوى امتدادا لليابسة والاثان يشكلان عالم الإنسان على هذا الكوكب، وهما وان اختلفا في الطبيعة والدور والمكان عند الإنسان، إلا أنهما يتكاملان لخدمته وتحقيق أهدافه، وبالرغم من ما تبدو عليه البهار من أداة فصل بين اليابسة هنا وهناك، فلقد نجح الإنسان ومنذ أقدم العصور إلى جعلها أداة وصل لا فصل، وهي ليست حواجز إنما هي طرق صالحة لمن توجد لديهم وسائل الانتقال إليها وفيها. واكتشف الإنسان أن البهار ليس فقط طريق للاتصال بين الأمم والحضارات بل لابد منه للحرب والتجارة والعداوة والصداقة ولإيقاع الضرر وتبادل المنافع².

2.3 القرصنة وتداعياتها في الحوض الغربي للمتوسط:

مفهوم القرصنة: أصل الكلمة إيطالي (corsa)، وتعني التسابق البحري والاعتداء على السفن وسواحل الدول الأجنبية، ومنها اشتقت كلمة قرصان، وقد استعمل الفرنسيون قبل القرن السادس عشر كلمة (attaque) أي الهجوم، وكلمة (écumeur)، بمعنى القرصان أي المهاجم، ومع بداية القرن السادس عشر بدأ تعميم كلمة corsaire في أوروبا³. فالمتبع للمعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة يجدها بعيدة نوعا ما عن المعنى الشائع حول مفهومها. فمعنى التسابق المصطلح اللغوي لهذه الكلمة يجعلها بعيدة كل البعد عما جاء حولها م معاني متعددة في مجال نشاطها كرياض البحر، أو القرصان، أو لصوص البحر⁴. فالقرصنة ظاهرة كونية لا تتوقف على ضفة دون أخرى، أو على جنس دون آخر، أو على دين دون آخر، وأنها ضاربة في أعماق التاريخ⁵.

القرصنة البحرية نوعان: 01-القرصنة الرسمية: (Corsair) باللغة الانجليزية، و(corsaire) باللغة الفرنسية، وينسب قدماء المؤرخين هذا اللفظ إلى اسم جزيرة كورسيكا⁶. لأن سكانها اشتهروا بالاستيلاء على ممتلكات غيرهم، ويرى آخرون أن أصل الكلمة تعود إلى الاسبانية وتعني كل عمل خاص يضر بسفن العدو التجارية مع تغاض واضح من السلطات⁷.

02- القرصنة البحرية الخاصة (الحرّة) (piratrei): مشتقة من اللفظة اللاتينية pyra التي تفيد معنيين الغش والخداع، أو قد تكون مشتقة من اللفظة اللاتينية pirata واليونانية pirates، واللفظ الأصلي هو peiran⁸، ويقابله في الفرنسية لفظة essyer، وهو الأكثر منطقاً⁹، وهذه اللفظة تدل على البحارة المغامرين الذين يركبون البحر أيام السلم وأيام النهب و اللص وصية. لكن سرعان ما أصبحت لصيقة بالبحارة الذين يقومون بعملية اعتراض السفن ونهبها دون أن يكون لهم ترخيص من دول معينة¹⁰.

3.3 الأبعاد والخلفيات الدينية لظاهرة القرصنة:

¹ -خريسات محمد وآخرون- تاريخ الحضارة الإنسانية- دار الكندي للنشر والتوزيع- ط01- الأردن- 1999م- ص96

² -لويس آرشيبالد- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط- ترجمة محمد أحمد عيسى- يقدم محمد شفيق غربال- مكتبة النهضة المصرية- ص14

³ -le petit la rousse-France-matière corsaire-grand format- Edition 2005 p297

⁴ - المنور مروش- دراسات عن الجزائر في العهد العثماني- ج02 (القرصنة الأساطير والواقع)- دار القصة للنشر والتوزيع- الجزائر- ص ص 03-05

⁵ - عبد المجيد القدوري- المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)- ط02- المركز الثقافي العربي- المغرب- 2012- ص348

⁶ - حسب الأب دان (le père dan) فإن لفظة "corsaire" منسوبة إلى "corse" التي تطلق على الشعوب المستقرة بكورسيكا. ينظر Pierre dan-histoire de barbarie et des ses

corsaire-récollet imp-duroy seconde2-edition-paris-1636-p-p50-51

⁷ - بشير عبد الرحمن- القرصنة غربي المتوسط القرن02-05/08-11م- حويلات الآداب والعلوم الاجتماعية- الحولية الثانية والثلاثون- الكويت- 2012- ص ص 28-29

⁸ - حسن أميلي- الجهاد البحري بمص أبي الرقاق خلال القرن السابع عشر الميلادي نظ01- دار أبي الرقاق للطباعة والنشر- الرباط- المغرب- 2006م- ص66

⁹ - زكي مبارك- الجهاد البحري في الغرب الإسلامي "المفهوم الإسلامي والمفهوم المسيحي"-مجلة البحث العلمي- السنة الإحدى والثلاثون- جامعة محمد الخامس- الرباط- العدد 45-1998م- ص23

¹⁰ - حسن أميلي- المرجع السابق- ص66

يعتبر العامل الديني من أبرز العوامل المؤثرة في توجيه العلاقات الخارجية بين البلاد المغاربية ودول غرب أوروبا، حيث ساهم في بروز نشاط القرصنة بين ضفتي الحوض الغربي للمتوسط. فكان هذا النشاط مصدر استنزاف مادي لكلا الطرفين طيلة العصر الحديث¹. فقد اعتبرت القرصنة في البحر المتوسط إحدى السبل المختصرة للحصول على الغنائم والثروات، والتي تساهم في شهرة وشرف وقيمة القرصان سواء كان شخصا أو باسم الدولة، والقرصنة البحرية أيضا لم تنفصل في ظاهر حركتها ونشاطها عن البعد الديني في مختلف صوره فالقرصنة الإسلامية استحدثت شرعيتها من مفهوم النص الديني لكلمة الجهاد²، واستندت مثيلتها المسيحية إلى الحركة الصليبية و"حروبها المقدسة"³. فالجغرافية الدينية فرضت وجود قطبين متصارعين. عالم إسلامي تزعمته الإمبراطورية العثمانية والعالم المسيحي الذي تقوده قوى أوروبا الغربية، وسيجمع كما سيفرق بينهما مبدأ "الثابت والمتحول". فالثابت لا يعدو أن يكون غير المتوسط كفضاء بحري محل نزاع قديم ومتواصل بين القوى التي تريد السيطرة على أسواقه ومراكزه التجارية، و"المتحول" هي ظاهرة القرصنة في تمردها على الاعتبارات الدينية. لتنشأ بحركيتها وفعاليتها قطاعا ذا مآرب مالية عاجلة وأرباح هامة أغلبها يسير المكسب. مقترنة برابط وثيق بالنشاط التجاري المحلي والدولي على السواء⁴.

4.3 القرصنة بين ثنائية المفهوم الجهاد البحري ولصوصية البحر:

يرى "فانتور دو بارادي" أن الجهاد البحري كان مرادفا لعملية القرصنة⁴، بينما لا يميز برنشفيك بين المصطلحين. إذ غالبا ما يوردهما للدلالة على شيء واحد هو اعتراض السفن المارة بمنطقة ما⁵، ويذهب عبد الله العروي إلى اعتبار الجهاد البحري عملية تقابلها عند الأوربيين عملية القرصنة⁶، أما زكي مبارك فيرى أن الأمر كان متعارفا عليه، وكان متبادلا بين المغاربة ونصارى فرنسا وإسبانيا وإيطاليا⁷. ومنه يجعلنا هذا التداخل أمام عدة معان عند تحديد مفهومها كنشاط وليس كمصطلح، والغالب في تحديد مصطلح القرصنة أنها قطع البحر واللصوصية فيه، والقرصان من يقوم بها ويستعملها⁸.

4. واقع ومآلات الرحلات الحجية البحرية في ظل تعاظم نشاط القرصنة في الحوض الغربي للمتوسط:

1.4 الركب البحري ومخاطر البحر:

كل الركاب كانت تسلك طريق البر في ذهابها وإيابها، وفوق ذلك كانت جماعات تؤلف ركابا تسافر في البحر ذهابا وإيابا، ولم يكن هذا وليد تقدم السفر في البحر بظهور السفن البخارية بل كان قبل ذلك بزمان كثير، وكثيرا ما كان بعض الحجاج المغاربة يرجع على طريق البحر⁹. حيث عانى المسلمون عموما والمغاربة خصوصا بسبب تعرض سفنهم لعمليات النهب التي مارسها بحارة من مختلف المدن الأوربية، ورغم أن الغرر كان يغلب على الطريق البري بسبب القلاقل التي أحدثتها الغزو الهلالي بالطريق البري الذي يربط المغرب ببلاد

¹- كمال مايدي- علاقات تونس مع دول أوروبا الغربية المتوسطة وتأثير البحرية فيها في عهد حمودة باشا من 1780 إلى 1814-مذكرات ماجستير-جامعة غرداية-الجزائر-2012/2011-ص 68

²-توفيق البشروش-جمهورية الدايات في تونس (1591-1675)-مجموعة أيام الناس-تونس-1992-ص.ص 79-80

³-رضا بن رجب-يهود البلاط ويهود المال في تونس العثمانية 1685-1857-ط 01-دار المدار الإسلامي-بيروت-2010-ص 31

⁴-jean -Michèle venture de paradis. Tunis et Alger au XXVIe siècle-mémoire et observations rassemblés et présenté par joseph couq- Edition sindibad -paris-1983-p-234-235

⁵-برنشفيك-تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13م إلى القرن 15م-ترجمة حماد الساهلي-ط 1-دار الغرب الإسلامي-بيروت-1988-ص 227

⁶-عبد الله العروي-مجلد تاريخ المغرب-ط 1-المركز الثقافي العربي-بيروت-لبنان-1994-ص 226

⁷-زكي مبارك-المرجع السابق-ص 16-17

⁸-نورالدين فهمي-التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى العاشر الميلادي-تعريب محمد قاسم عبده قاسم-دار الوحدة-بيروت-1980-ص 127

⁹-محمد المنوني-المرجع السابق-ص 40

مصر، فإن المغاربة وبخاصة أولئك الذين كان عزمهم زيارة البيت الحرام غالبا ما يسافرون على سفن توصلهم إلى بلاد مصر، ليواصلوا الرحلة بعد ذلك نحو بلاد الحجاز¹.

إن تفضيل المغاربة الطريق البحري لا يعني أن البحر كان أكثر أمنا من الطريق البري، بقدر ما يدل على أن الخطورة متفاوتة بين الطريق البري والبحري، وحتى إذا ركبوا البحر فإنهم ينتظرون في كل لحظة أن يقعوا في قبضة العدو، ولعل الحالة النفسية التي عاشها ابن جبير وابن رشيد السبتي وأحمد المقرري على متن المراكب التي نقلتهم إلى ديار مصر خير دليل على ضعف الأمن في البحر المتوسط²، وبخصوص الركب البحري الجزائري فإنه كان مرتبطا بإجراءات تحضير (الصرة)³، والقوائم الملحقة بها، والدائي هو الذي يعطي الأمر بانطلاق رحلة الحج رفقة مبعوثه الخاص الذي عادة ما يكون بيت المالجي، وفي هذا الصدد وصف الشريف الزهار مشاركته في انطلاق ركب الحج لعام 1233هـ/1818م بهذه العبارات "...بعد شهرين من ولايته⁴، أمر بتسريح المراكب للحج، وعين (أمين) بيت المال أمينا على الصرة، ودفع له مال الصدقة التي تدفع كل سنة لفقراء الحرمين الشريفين، وفي هذه السنة ذهب الناس أفواجا للحج، منهم الفقير إلى ربه، وكان الوباء قد اشتعلت ناره، وفي يوم سفرنا وقت الضحى، وصلت مائة جنازة، ثم سافرنا، نطلب من الله القبول والعودة لنا ولجميع المسلمين..."⁵. ففي كل عام يغادر مدينة الجزائر حوالي 200 من الحجاج باتجاه مكة المكرمة عن طريق البحر التي تعتبر الأكثر أمنا والأقل تعباً والأقصر مدة بالمقارنة مع طريق البر التي تسلكها قافلة الحجاج (الركب)، وبالنسبة لطريق البحر، جرت العادة أن يستأجر البابليك وكبار الموظفين والأعيان سفنا عثمانية أو أوربية لنقل الحجاج و"الصرة"⁶، وحسب المعلومات التي جمعها "دوفو" يتبين أنه في العام 1086هـ/1678م، تم نقل الحجاج على سفينة إغريقية، وفي 1096هـ/1685م على سفينة هولندية، وفي عام 1104هـ/1693م على سفينة جزائرية تحت قيادة الرايس حاجي محمد بن غانم، وفي 1118هـ/1707م على سفينة لومازان le masin الفرنسية، وفي 1127-1131هـ/1715م تم نقل الحجاج على سفينة انكليزية تحت قيادة القبطان بير BIR، وفي 1131هـ/1719م على سفينة انكليزية أخرى تحت قيادة القبطان ميكيل ألسن (mikilelesen)، وفي 1132هـ/1720م على سفينة فرنسية تحت قيادة القبطان نيقولا انجير nicolasanger، وفي 1139هـ/1727م نقل الحجاج إلى الإسكندرية على ظهر سفينة فرنسية تحت قيادة القبطان جونيل djounil⁷، و بالنسبة للركب المغربي فمن أيام السلطان المولى عبد الرحمان كثر الحج على البحر ذهابا وإيابا وعليه من - مرسى طنجة - حج ورجع ركباً هياهما السلطان المذكور الأول عام 1256هـ. وجه فيه ولديه الأميرين المولى الرشيد والمولى سليمان وحمله هدايا وقصيدة للحضرة النبوية الشريفة من نظم المؤرخ اكنسوس المراكشي، والركب الثاني بعثه عام 1274هـ. كان فيه أبنائه الأربعة الأمراء المولى

¹ - زكي مبارك - المرجع السابق - ص 22

² - الطاهر قدوري - مسألة القرصنة أو الجهاد البحري في المغرب الإسلامي: دراسة مقارنة - مجلة عصور الجديدة العدد 02 - وهران - الجزائر - جوان 2020م - ص 137

³ - تعتبر الصرة التي تخصصها مؤسسة الحرمين الشريفين للبقاع المقدسة في أعين السكان علامة شرف وواجب نبيل يرمز إلى الروابط الروحية والثقافية والاقتصادية بين الجزائر العثمانية والمدنيتين المقدستين - فبالنسبة للجزائر اكتست الصرة التي ارتبطت بقافلة الحج - طابعين اثنين أحدهما ديني والآخر اجتماعي بما أنها كانت موجهة اسميا للحجاج. على أنه في واقع الأمر لم يكن للحجاج الجزائريين حق في الأموال المخصصة لمكة المكرمة والمدينة المنورة، ولم يكونوا يحصلون على إعانات من أموال الصرة ناصر الدين سعيدوني - الوقف الجزائري أثناء العهد العثماني - ص ص 175-176.

⁶² - نفسه - ص 178

⁴ - يقصد ولاية الداي حسين باشا والذي تولى في 23 ربيع الثاني سنة 1233هـ

⁵ - أحمد الشريف الزهار - نقيب الأشراف - مذكرات نقيب الأشراف (1754-1830) - تحقيق توفيق المدني - الجزائر - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - 1974 - ص 144

⁶ - ناصر الدين سعيدوني - المرجع السابق - ص 179

⁷ - نفسه - ص 180

علي والمولى إبراهيم والمولى عبد الله والمولى جعفر وابن عمهم المولى أبوبكر بن عبد الواحد بن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وقد احتفل السلطان المولى عبد الرحمان بهذا الركب وبالغ في تجهيزه بما لم يتقدم في الركب قبله

2.4 نماذج من الرحلات الحجاجية البحرية 01-02-رحلة جوزيف بيتس:

يتحدث (بيتس) بالتفصيل عن رحلته للحج فيقول بأن قافلة الحج الجزائرية التي انضم إليها مع سيده -استقلت سفينة إلى ميناء الإسكندرية بمصر -فوصلوها في غضون ثلاثين أو أربعين يوماً¹، "...وفي تلك السنة خرجت من الجزائر قاصدا مكة (المكرمة) فوصلنا للإسكندرية في غضون ثلاثين أو أربعين يوماً وهي فترة معقولة²، وقد مكثنا في الإسكندرية زهاء عشرين يوماً³، ثم يستغرق في ذكر بعض أحوال الناس في مصر آنذاك، وما مر به من أشياء أثارت فضوله، سواء مما يتعلق بالإنسان أو المكان، فمن ذلك أنه أبحر عبر النيل من الرشيد إلى القاهرة، فلاحظ أن مصب النيل عند الرشيد قد تنتظر عنده السفن عشرة أيام لا تتمكن من دخوله بسبب تراكم الرمال التي يجرفها النيل في جريانه نحو البحر⁴، وفي الغالب يكون مصب النيل خطرا جدا، مما يجعل السفن تبتعد عنه لأن النيل يجرف الرمال إلى البحر، وهذا ما يجعلها تضطر في بعض الأحيان للانتظار عشرة أيام أو اثني عشر يوماً حتى يطهر المصب من هذه الرمال⁵، وتحدث عن أعمال النهب لمراكب الحجاج العابرة في النيل، وأن اللصوص يعرفون قدومهم، ثم أفاض في الكلام عن مجتمع القاهرة في ذلك الوقت كأجناس الناس هناك ولباسهم وطباعهم⁶.

بعد ذلك تركت القافلة مصر وأبحرت في البحر الأحمر من ميناء السويس، التي يعز فيها الماء العذب، فيشتري بالدرهم، ويصف الرحالة مخاطر الإبحار في البحر الأحمر وأنه غير آمن، وذلك بسبب كثرة الصخور التي ما تكاد تنتهي من رؤية بعضها حتى ترى بعضها الآخر، وأن تلك الصخور كانت ترى بوضوح من السطح⁷، حيث يتجلى ذلك في قوله: "... في طريقنا من القاهرة إلى مكة (المكرمة) وعند طرف البحر الأحمر وصلنا لمدينة السويس التي تبتعد عن القاهرة زهاء يوم، ولها ميناء ترسو به السفن المتجهة للديار المقدسة، وبعد أن أبحرنا يومين أو ثلاثة من السويس رست سفينتنا في الطور وهي مدينة صغيرة جدا ذات ميناء حيث أنعشنا أنفسنا بالماء، ذلك أن كل مسافر يتحمل مسؤولية حصوله على مائه⁸، والإبحار في البحر الأحمر غير آمن ليلا، إلا في موضع واحد لا يستغرق أكثر من ليلتين، وذلك بسبب كثرة الصخور التي ما نكاد ننتهي من رؤية بعضها حتى نرى بعضها الآخر، والبحر الأحمر ضيق حول السويس، ولما أبحرنا للطور كانت الصحراء قريبة عن يسارنا، ولم نر أي ساحل عن يميننا⁹، وقد مرت السفينة بقبر هناك عليه مقام للشيخ (المرباط)¹⁰، حيث ذكر ذلك بقوله "...لقد مكثنا مبحرين في هذا البحر زهاء شهر، وكنا قد أبحرنا من السويس حوالي عشرين يوماً فوصلنا لموضع دفن (مقام)

¹ - صالح بن محمد المطيري رحلة جوزيف بيتس إلى الحجاز عام 1086هـ/1680م مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة العدد 06 الرياض 2003 ص145

² -جوزيف بتس-رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة- ترجمة ودراسة عبد الرحمن عبد الله الشيخ- الهيئة المصرية العامة-مصر-1999م- ص23

³ -جوزيف بتس- نفسه- ص 23-24

⁴ - صالح بن محمد المطيري- المرجع السابق- ص 145

⁵ - جوزيف بتس- ص 27-28

⁶ - صالح بن محمد المطيري- المرجع السابق- ص146

⁷ - صالح بن محمد المطيري- المرجع السابق- ص146

⁸ - جوزيف بتس- نفسه- ص 41

⁹ - جوزيف بتس- نفسه- ص43

¹⁰ - صالح بن محمد المطيري- المرجع السابق- ص146

المرباط، ويعني المجاهد في سبيل الله¹. بعد ذلك وصلت القافلة إلى رابغ، وفيه نزل الحجاج من السفن، وارتدوا ملابس الإحرام ثم توجهوا بالسفينة إلى جدة، ثم توجهوا إلى مكة لأداء مناسك الحج².

3.4 الطريق الذي سلكه ابن عثمان المكناسي:

لقد غادر ابن عثمان المكناسي والوفد المرافق له مدينة الرباط في الفاتح من محرم 1200هـ / 04 تشرين (نوفمبر) 1785م، في اتجاه مدينة تطوان³، ويؤكد ابن عثمان أن شدة هيجان البحر حالت دون ركوبهم البحر، حيث يذكر ذلك بقوله: "... فلما وصلنا تطوان لم يتمكن للمركب قدوم لشدة هيجان البحر في ذلك الأوان، وقد كان فصل الشتاء..⁴، وبعد أن أقاموا مدة من أربعة أشهر ونصف الشهر. توجه الوفد إلى مدينة طنجة التي أقام بها شهرا ونصف الشهر، وفي 02 رجب استقل مركبا إسبانيا بعثه ملك إسبانيا استجابة لرغبة السلطان سيدي محمد بن عبد الله لينقلهم إلى قرطاجنة الإسبانية⁵، وعلى ما يذكر فقد ركب الوفد سفينة حربية كبيرة أبحرت باتجاه القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية وقد وصلوها في 04 شوال 1200هـ / 1785م⁶، وبعد الانتهاء من المهمة التي قدم الوفد من أجلها إلى إسطنبول، وبعد تجهيزه بما يحتاج إليه في الطريق، غادر الوفد العاصمة التركية يوم 23 رجب 1201هـ / 1786م. مخترقا الأناضول وبلاد الشام مروراً بعدة مدن وقرى (مدينة السكوت، مدينة اسك شاهر، أدرنة، قرية اسكندرون، انطاكية، حماة، حمص، ودمشق)⁷، ويذكر ابن عثمان أن الوفد مكث بمدينة دمشق السورية ثمانية وثلاثين يوماً ثم غادرها ليلة 19 شوال باتجاه الحجاز⁸، وقبل أن يصل إلى الحجاز مر الركب على قرية ذي النور، ووادي الشور، وقرية معان، والعقبة، وبلدة تبوك، ومدائن صالح ثم المدينة المنورة، وبعد أداء الزيارة توجه الوفد إلى مكة المكرمة⁹، والتي دخلها عند الضحى من اليوم السابع من ذي الحجة سنة 1020هـ، والذي يوافق 07 سبتمبر من عام 1788م¹⁰، وظل بها إلى غاية 27 منه ليبدأ طريق العودة. وقد كان خروج الوفد من مكة المكرمة مع الركب الشامي باتجاه المدينة ومنها إلى دمشق حيث يذكر ذلك بقوله: "...فبقينا مدة مقامنا بمكة ونحن ملازمين للبيت، حتى تعين السفر مع ركب حجاج الشام إذ نفر، ورجعنا أدرجنا نفري المعالم والمجاهل..¹¹، وفي يوم 09 ربيع الأول توجه الوفد إلى مدينة عكا التي ظل بها مدة تسعة أيام في انتظار قدوم السفينة التي سوف تقل الوفد، وخلال الإقامة بعكا زار الوفد مدينتي القدس الشريف والخليل، وفي 29 ربيع الثاني غادر الوفد ميناء عكا على ظهر سفينة حملته إلى جزيرة قبرص التي أقام بها نحو عشرة أيام، ثم تحركت السفينة باتجاه تونس حيث تنتهي الرحلة البحرية، وذلك أن الوفد قرر الدخول إلى المغرب عن طريق البر¹².

¹ - جوزيف بتس - نفسه - ص44

² - صالح بن محمد المطيري - المرجع السابق - ص146

³ - مصطفى الغاشي - المرجع السابق - ص420

⁴ - ابن عثمان المكناسي - الإحراز - المصدر السابق - ص51

⁵ - مصطفى الغاشي - المرجع السابق - ص422

⁶ - ابن عثمان المكناسي - الإحراز - المصدر السابق - ص55

⁷ - مصطفى الغاشي - المرجع السابق - ص425

⁸ - ابن عثمان المكناسي - الإحراز - المصدر السابق - ص150

⁹ - مصطفى الغاشي - المرجع السابق - ص400

¹⁰ - عبد الهادي التازي - المرجع السابق - ص402

¹¹ - ابن عثمان المكناسي - الإحراز - المصدر السابق - ص265

¹² - مصطفى الغاشي - المرجع السابق - ص428

4.4 الطريق الذي سلكه أبو القاسم الزباني:

حج الزباني حجته الثانية بمفرده سنة 1206 هـ / 1792م، في عهد المولى سليمان. هذا بعدما كان حج مع والده قبلها، حيث يمكننا تقسيم رحلته إلى ثلاثة مراحل:

المرحلة الأولى: كانت بداية رحلته من مدينة تلمسان، ثم الجزائر ومنها لقسنطينة، ثم إلى تونس التي وصلها في الأول من جمادى الأولى 1208 هـ / 05 ديسمبر 1793¹، ومن تونس سافر إلى الإصطمبول بقصد السفر في درب الرومي لمشاهدته وخبر مابه من المنازل والمدن الموجودة بالشام.

المرحلة الثانية: حيث رافق أمين الصرة في درب الروم، وذكر منازل ومدنه ومشاهداته في إقليم الشام. بدأوا سفرهم بمنزل يقال له: الإسكدار ومنها أخترق آفاق الأناضول رفقة ركب المحمل الشريف مارين بعدة قرى ذكر منها: قرية قرضل، سقالة الدبل، قرية جارسك كولي: خان الوزير، السكوت، قرية سيدي الغازي، خصوم باشي، بياض كولي، بلودم، آق شهر، القين، اللاذن، قرية اسمل، قرية قربناز، اركلة، وادي قشلة مقطع شفر خان، قرية اوابل، ثم مدينة اذنة، ثم مدينة حماة بعدها مدينة حمص ثم دمشق بعدها مباشرة الى بلاد الحجاز² بعد أدائه مناسك الحج ومقامه بمكة ومالقيه بها من الأمراء والأعيان وذكر مزاراتها قرر الرجوع.

المرحلة الثالثة: الأوبة الى بلاد المغرب: الوصول إلى تونس: وفي ذلك يقول "...ولما بلغنا لتونس الخضراء، ومعنا جماعة من الحجاج الفقراء... وبعد يومين جاءنا الإذن بالنزول إلى (الكرنطينة) الشنعا، فنزلنا بقلعة تيكلي...."، وبعدها أكمل عدة الكرنطينة نزل بتونس، ومنها توجه برا إلى الجزائر التي دخلها عبر مدينة قسنطينة، ثم توجه إلى مدينة الجزائر التي أقام بها سبعة اشهر³: "...إلى أن فتح الله⁴ عليه برد بضاعته..."، وبعدها كانت نيته الاستقرار بتلمسان جاءه أمر شريف من السلطان المولى سليمان بالرجوع الى وطنه ليجتمع شمله بأهله⁵

5. القرصنة الأوربية وترويع حجاج الركب البحري:

لقد مثلت عمليات القرصنة الأوروبية التي شاعت في حوض البحر الأبيض المتوسط في تلك الفترة التحدي الصعب الذي واجه الركب البحري. لكن لا يفوتنا أن نشير إلى أن تلقب الأسرى بالحاج يدل على أنهم وقعوا في الأسر وهم في طريق العودة من الحج إلى ديارهم ببلاد المغرب⁶، ولا غرو إن وجدنا أن عددا من الأسرى الجزائريين المحتجزين لدى الدول الأوروبية المعادية للجزائر كانوا يحملون لقب "الحاج" مثل النماذج التالية: الحاج محمد، الحاج مصطفى، الحاج حمودة⁷، ولعل بعض من أولئك الأسرى قد أُلقي عليهم القبض يعد عودتهم من الحج مباشرة لأن السفن المقلدة للحجاج الجزائريين كانت تساهم في الجهاد البحري وتدافع عن مصالح الجزائر أيضا. ففي أحد

¹ - مولاي بلحميسي - الجزائر من خلال الرحالة المغاربة - ص 183

² - أبو القاسم الزباني - المصدر نفسه - ص 175-183

³ - نفسه - ص 373-374

⁴ - نفسه - ص 379

⁵ - مولاي بلحميسي - الجزائر من خلال الرحالة المغاربة - ص 194-195

⁶ - الأجدد بوزيد - مرجع سابق - ص 55

⁷ - خليفة حماش - الأسرى الجزائريون في أوروبا في العهد العثماني - ص 23

المناسبات قامت سفينة حاملة للحجاج بتحرير أرقاء جزائريين وأتراك من أيدي محتطفيهم، الذين كانوا يرغبون في نقلهم إلى مدينة جنوة الإيطالية لبيعهم هناك¹.

إن رحلة الحج عبر البحر محفوفة أصلا بمخاطر الغرق أو التيه، إضافة إلى ذلك كان يتعرض المقدمون عليها للقرصنة الأوروبية المسيحية خصوصا من طرف فرسان مالطا² المشهورين كذلك باسم فرسان القديس يوحنا. فمالطة القريبة من سواحل بلاد المغرب لم يكن في الأوروبيين من هو أضر منها على سفن المسلمين عامة والحجاج المغاربة خاصة، لكونها تقع بمحاذاة طريق ركب الحج الجزائري البحري. فقد عرفت العديد من رحلات الحج عبر المتوسط انطلاقا من الموانئ المغاربية. حدوث العديد من المآسي البحرية والمتمثلة في وقوع العديد من ركب الحج المغاربي في أسر قراصنة مسيحيين، حيث أسر مائة حاج مغربي سنة 1053هـ/1647م، وتم إطلاق سراحهم بالفداء، وفي سنة 1650م علم في جزيرة مالطا عن ركوب حجاج مغاربة في سفن انجليزية وخروجهم من تونس قاصدين مكة، وفي الحين أبحرت من الجزيرة سفنا شرعية كبيرة بقيادة الرئيس البحري (بالطازارماندولس BalThazar MENDOLS)، وهو راهب يشتغل بالقرصنة ضد المسلمين، واعترض السفينة الانجليزية، وأسر من فيها من الحجاج، واقتادهم إلى مالطا³، وتجددت هذه الفاجعة سنة 1168هـ/1762م. حيث غرق مائة حاج بعدما أفلعت بهم السفينة من الإسكندرية في اتجاه تونس والمغرب⁴، ووردت في المصادر الإسلامية نماذج عن حالات اعتداء قراصنة مالطا على ركب الحجيج مثل ما ذكره الزباني في الترجمانة الكبرى حول قصة إبراهيم الدمياطي بقوله: "...ولقد أخبرني الشيخ إبراهيم الدمياطي وكان حج معنا: قال سافرت من بلدي دمياط بقصد جزيرة كندية في مركب للمسلمين، فلما قربنا من كندية وقع مركب للمالطية فأسرونا..."⁵.

كما انضمت بعض الدول المسيحية إلى ذلك الحلف العدائي، وأصبحت تستهدف سفن الحجاج دون رادع أو مانع، فالقبارصة يتصرفون مثل فرسان مالطة، وأخذوا يهاجمون السفن المسلمة، ويتعرضون للحجاج والتجار، ومما يثبت القول رسالة الحاج محمود طوبجي إلى حسين باشا عام 1242هـ، والذي يقول فيها أنه لما ركب البحر للعودة إلى الجزائر من بلاد الحجاز بعد أداء فريضة الحج أسره اليونانيون وقادوه إلى جزيرة سوسام، حيث بقي أسيرا هناك مدة أربع سنوات⁶، كما أسر ثمانية حجاج جزائريين كانوا على متن سفينة انجليزية من قبل قراصنة فرنسيين⁷، وهناك مصدر آخر للرق يعتبر أكثر وقعا، وهو أن الضباط المسيحيين كانوا يحملون على سفنهم المسافرين المسلمين ربما كانوا حجاجا في طريقهم إلى مكة، أو مجرد مسافرين إلى إحدى موانئ المشرق، وبدلا أن ينزلوهم في الإسكندرية، يأخذونهم إل سيراكوس أو مسينا أو صقلية أو غيرها من الموانئ المسيحية لبيعهم في أسواق العبيد⁸، وهو ما حدث مع البولاكرة بقيادة القبطان "برتول"

¹ - جوزيف بتس - المصدر السابق - ص 24

² - أبو القاسم سعد الله - شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية - ط 01 - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان 1986 م - ص 84

³ - محمد بن عبد الوهاب ابن عثمان المكناسي - البدر السافر لهداية المسافر إلى إفتكاك الأسارى من العدو الكافر - تقديم وتعليق د. عبد الهادي التازي - ط 01 - المجلة العربية - الرياض - 1443/2012م - ص 51

⁴ - محمد مكمان - الرحلات المغربية في القرنين الـ17 والـ18م - مكتبة كلية الآداب بالرباط - المغرب - 1986 - ص 144-149

⁵ - أبو القاسم الزباني - المصدر السابق - ص 192

⁶ - خليفة حماش - المصادر الوطنية عن الأسرى الجزائريين في أوروبا - المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية - العدد 45-46 - مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات - تونس - ديسمبر 2012 -

Cloudbertole في 1777م التي تعرضت إلى اعتداء من الفرقاطة الإسبانية *vierge carmes*، واقتيدت السفينة الفرنسية وعلى متنها حجاج جزائريون إلى قرطاجنة بدل ذهابها إلى الإسكندرية¹، والروس كذلك أعلنوا انتقامهم من أعدائهم العثمانيين بمهاجمة سفن الجزائر، بحكم أن الجزائر إحدى ولاياتهم، فقد هاجموا في إحدى السنوات سفينة فرنسية تم كراؤها لنقل الحجاج الجزائريين، وأوشك القبطان الروسي أن يضرب السفينة الفرنسية ويغرقها بمن فيها، لولا تدخل مساعديه الذين حذروه من تبعات ذلك الفعل². كما ذكر "دوغرامون" حادثة سنة 1717م، والتي تم فيها قرصنة البولاكرة الفرنسية التي كانت تنقل الحجيج الجزائريين إلى مكة ما استدعى تدخل البلاط الفرنسي الذي أرسل مبعوثا إلى سان بيترسبورغ للتفاوض³، ومن أسوأ المواقف التي تعرض لها ركب الجزائر البحري حادثة اختطاف سفينتين تقلان الحجاج والتجار الجزائريين سنة 88 هـ / 1590م، وذلك بمكيدة دبرها المستخدمون على متنيهما من العبيد والمجذفين النصارى، وسيقت السفينتان إلى بلاد النصارى بمن فيها، في حين فضل الركاب المسلمين إلقاء أنفسهم في البحر أملا في النجاة سباحة من السر، وفي سنة 1239هـ / 1824م هاجم فريق من القراصنة الانجليز والمالطيين وغيرهم مركبا للحجاج الجزائريين، واقتادوه إلى مالطا، وبقي محتجزا هنالك إلى أن وقع الصلح بين الجزائر وانجلترا⁴، وبالتأكيد كان الباب يرتل صلوات الشكر للسيد المسيح، وهو يستعرض الآلاف من الأسرى المغاربة، الذين أسروا بعد عمليات الغزو التي تعرضت لها السواحل المغربية، أو الذين أسروا في البحر، وهم في طريقهم إلى الحج، ليتم بيعهم في أسواق الرقيق بإيطاليا.

كما هو الحال في سوق القورنة أو روما أون ابولي، ومن كثرتهم أصبح بإمكان السفن البابوية والاطيالية استبدال الجذافين دون صعوبة⁵، وبعبدا عن البحر كان الحجاج الجزائريون يتعرضون للنهب كذلك من طرف اللصوص في نهر النيل، وذلك أثناء انتقالهم في القوارب من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القاهرة، وهم أي اللصوص "يكترون في هذا الوقت من العام لكثرة عدد الحجاج الذين يتخذون طريقهم مبحرين في النيل من رشيد إلى القاهرة، ويعلم اللصوص أن الحجاج يحملون مبالغ مالية⁶.

6. الأسرى من حجاج بلاد المغرب:

وفعلا لم يكن قراصنة مالطا يترددون في اختطاف مغاربة عائدين من الحج، وفي هذا الإطار تذكر المصادر أن واحد وعشرين حاجا من بلدان المغرب وقعوا في أسر قراصنة مالطا خلال الفترة 1772-1775 من بينهم: المسمى "الحاج إبراهيم كدوسي وابنه وامراته وأيضا محمد الحنفي الجزيري⁷. فلا نندهش عندما نجد حجيجا ضمن الأسرى المغاربة في أوروبا، وذلك أن أغلبهم يتصفون بعجز بدني يجعلهم يعدون ضمن أصناف قليلة الجودة من الرقيق. لكن من وراء أسر الأطفال والنساء والحجيج كانت القوى الأوربية تسعى في الواقع للضغط

¹Plantet E- correspondance...op cit-pp349-350

²-عزيز سامح إتر- الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية-ترجمة محمود علي عامر-ط01- دار النهضة العربية للطباعة والنشر-بيروت-لبنان-1989م- ص 226

³- Henri Dalmace DE GRAMMONT, histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830 Ernest Leroux. Editeur-paris- 1887-P312

⁴-أحمد الشريف الزهار-نفس المصدر- ص 153

⁵-belhamissimouley-histoire de la marine algérienne 1518-1830-enal-alger-1986 -p21

⁶- جوزيف بتس- المصدر السابق- ص 28

⁷- الأجد بوزيد- الأسرى المغاربة في أوروبا في الفترة 1772-1775 من خلال الأرشيف الوطني التونسي- مجلة أسطور للدراسات التاريخية- العدد 06- المركز العربي للأبحاث-قطر-2017ص 52

على حكام المغرب وحملهم على مقايضة أسراهم بأسرى أوريبيين¹، وفي هذا الصدد يخبرنا قنصل فرنسا بالجزائر أن الداوي أمر سنة 1761 بإطلاق سراح 59 من اليسوعيين خوفا من قيام قرصنة ما لطا ومرسيليا بأعمال انتقامية ضد الحجاج الجزائريين². لكن موقف داي الجزائر يدل على أن الأطراف المتصارعة سواء القرصنة الأوربيون أو المغاربة كانوا يتحاشون أسر العجز ورجال الدين³، وقد حفظت لنا المراسلات الدبلوماسية من أعلى مستوى بعضا من تلك المشاكل. ففي رسالة من الداوي علي باشا شاوش (1710-1718م) إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر بتاريخ 15 مايو 1717م. تحدث فيها عن سابقة خطيرة كانت على وشك أن تخدش الثقة التي كانت للجزائريين في أرباب سفن النقل الفرنسيين. فقد حدث أن تم كراء إحدى السفن بحضور القنصل الفرنسي وجماعة من التجار. بهدف نقل بعض الحجاج مع أغراضهم في اتجاه مصر، وأثناء الإبحار توقف قائد السفينة بتونس حيث ركب تجار وأناس آخرون مع عائلاتهم كلهم من الحجاج، بحضور القنصل الفرنسي هناك، وعوض الاستمرار في طريقه إلى الوجهة الصحيحة. أبحر إلى صقلية حيث أنزل الجميع مع بعض الأمتعة، محتفظا لنفسه بأثامها، ثم قفل عائدا على فرنسا، واعتبر الداوي أن ما حصل يتنافى مع الصداقة المتينة والعريقة بين فرنسا والجزائر، وطالب باستعادة الأمتعة وإرجاع الحجاج ومعاقبة الجاني⁴. ومن هذا المنطلق يمكن القول إن وقوع حجاج مسلمين بيد قرصنة أوريبيين من شأنه أن يثير غضب العامة في بلدان المغرب، ويذكى لديهم مشاعر العداء الديني الموروثة عن أحقاد الحروب الصليبية⁵.

من جهة أخرى نفهم من سقوط حجاج وأطفال ومزارعين مغاربة في الأسر بيد قرصنة أوريبيين أن الأنظمة السائدة في بلاد المغرب كانت عاجزة عن ضمان أمن رعاياها القاطنين بالجزر والمناطق الساحلية، وأيضا غير قادرة على توفير الحماية اللازمة لهم أثناء سفرهم بحرا. كل هذا يدل على تبدل موازين القوى في منطقة المتوسط في القرن الثامن عشر الميلادي، وتفوق أوربا عسكريا واقتصاديا على بلدان المغرب⁶.

7. الجهود المبذولة لتأمين ركب الحج المغاري:

1.7 الجهود الرسمية:

لا شك أن الاعتداء على الحجاج وترويع أركاب الحج من الممارسات المستهجنة في أوساط المسلمين جميعا، ويقع الجزء الأكبر من مسؤولية تأمين المسارات الواقعة في إقليم الدولة العثمانية على عاتق حكامها وولايتهم، فالسلطان العثماني هو حامي الحجاج الأول باعتباره خادم الحرمين الشريفين. لذلك اهتم العثمانيون بحماية المعابر المؤدية إلى الحرمين الشريفين وبصفة خاصة طريق درب الحجاز، وكان موكب الصرة السلطانية⁷ الذي يحمل الأموال والهدايا القيمة التي يرسلها السلطان العثماني وشعبه إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة يبدو

¹ - الأجد بوزيد- المرجع السابق- ص 52

² - charlebrouchier-correspondances des consuls de France à Alger (1642-1792)-inventaire analytique des article-a-eb1/115à145-paris-2001-p521-904

³ - الأجد بوزيد- المرجع السابق- ص 52

⁴ - محمد أمين- الاختراق التجاري الفرنسي للجزائر خلال العهد العثماني 1518-1830م- دار كوكب العلوم- الجزائر- 2016م- ص 181

⁵ - الأجد بوزيد- المرجع السابق- ص 52

⁶ - الأجد بوزيد- المرجع السابق- ص 52

⁷ - في الوقت الذي تعني فيه كلمة الصرة في اللغة "الكيس أو الخزقة التي توضع فيها النقود" فقد اكتسبت هذه الكلمة ثراء كبيرا على مر القرون من خلال سبيل الوداع-وقوافل الحجاج وموكب المحمل وحقائب الهدايا وتراب المدينة المنورة ودموع فرحة الحجاج وروائح العطور التي لا توصف والمولد وأصوات المدافع والرحلات المليئة بالحن والبلايا والعبادات والأدعية والجماليات الكثيرة. للمزيد ينظر: يوسف جغلار وصالح كولن- المحمل الشريف- ص 10

وكأنه يمثل شخصية خادم الحرمين الشريفين¹، فقد كان العثمانيون بمثابة القوة الوحيدة التي تدافع على العالم الإسلامي ضد الاعتداءات الغربية، فبينما كان السلطان العثماني سليم الأول في القاهرة دخل أسطول برتغالي إلى مياه البحر الأحمر لمهاجمة مكة، فهرع أهل الحجاز إلى طلب العون والمساعدة من الأمير العثماني القبطان (سلمان رئيس) حتى لا يتركهم بمفردهم أمام هذا الخطر المحقق. فاستجاب (رئيس) إلى نجاتهم ودافع عن ميناء جدة الذي يعتبر مرفأ مكة المكرمة حتى استطاع أن يهزم البرتغاليين، كما أصدر السلطان سليم الأول أوامره بتجهيز أسطول ضخيم في البحر الأحمر غير أسطول البحر البيض المتوسط وذلك لفرض هيمنة الدولة العثمانية على المنطقة.² كما أمر بعد انضمام مصر للدولة العثمانية سنة 923هـ/1517م بأن يسير الحجاج كلهم -مصريون ومغاربة- في الدرب مع قافلة المحمل الرسمية المهيبة المنطلقة من القاهرة، وذلك لتوفير الأمن والراحة للحجاج، فالعساكر يؤمنون تلك الأركاب من مصر إلى بركة الحاج، والعسس يتواجدون غالبا في بنادر درب الحجاز،

كما بذلت بعض الجهود بين الفينة والأخرى لحماية ركب الحج. فكان باي طرابلس الغرب يحسن إلى الركب الجزائري، ويأمر بحراسة الحجاج وأملاكهم ليلا من السراق، وذلك دون بقية الأركاب المغاربية الأخرى. إظهارا للمودة ورغبة في صالح الدعاء من أعلام الحج الجزائريين.³ كما أن داي الجزائر علي باشا شاولش بعث برسالة إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر بتاريخ 15 مايو 1717م احتجاجا على عدم التزام الناقلين الفرنسيين للحجيج، نفس الموقف من سلطان المغرب سيدي محمد بن عبد الله الذي راسل ديوان جمهورية دوبروفنيك لحماية الحجيج من هذه الممارسات⁴، أما سلطات مدينة القاهرة فلطالما حذرت ساكنيها من مغبة الاعتداء على الحجاج المغاربة عموما وذلك مدة مكوثهم بالأراضي المصرية.

خاتمة:

إن الاعتداء على ركب الحجيج البحري يقدم لنا صورة سلبية عن تاريخ العلاقات بين أوروبا المسيحية وبلدان المغرب خاصة مالطا. كما يفيدنا هذا البحث في فهم المسار التاريخي لعلاقات بلدان المغرب بالعالم الخارجي خاصة الضفة الشمالية للحوض الغربي للمتوسط منه. فمن خلال عجز حكومات الولايات العثمانية المغاربية ومعها المملكة العلوية بالمغرب الأقصى عن حماية ركب الحجيج البحري، والعجز حتى عن توفير سفن ومراكب لنقل الحجيج، ولجوؤها إلى اكتراء السفن والمراكب الأوربية لنقل الحجيج إلى البقاء المقدسة يبرز لنا انقلاب موازين القوى في المتوسط خلال نهاية الفترة الحديثة لصالح الأوربيين بينما النشاطات البحرية في بلدان المغرب أخذت تتقهقر.

رغم كل هذه العراقيل والأخطار إلا أن ذلك لم يثن من عزيمة أهل المغرب في الرحلة إلى الحج وتفضيل المغامرة عبر الطريق البحري حتى صار مع مرور الوقت مفضلا لدى العديد ممن تنقلوا إلى البقاع المقدسة.

¹ - يوسف جغلار صالح كولن - المرجع السابق - ص 15

² - يوسف جغلار صالح كولن - المحمل الشريف - المرجع السابق - ص 14

³ - الحسين بن محمد السعيد الورثياني - نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار - ط 01 - ج 03 - مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة - مصر - 2008م - ص 292

⁴ - محمد أمين - المرجع السابق - ص 181